

الازدواجية بين قطريته وعروبيته، ومهما حاول التوفيق بجعل الشخصيتين متكاملتين بدلاً من متناقضتين، إلا أنه كثيراً ما يجد صعوبة في النجاة من النقد وتهمة التحيز لواحدة منهما أو التردد فيما بينهما. ولما كان الموقف من قضية فلسطين هو المحك الأساسي لقومية أي مسؤول عربي، ندرك عندئذ مدى حساسية هذا الموضوع. ولا ريب أن هذه الحساسية قد تضاعفت بعد قيام الثورة الفلسطينية، أولاً لأنها ثورة والثورة غير الدولة، وثانياً لأنها المرجع الرسمي للقضية والحكم على مواقف الدول منها.

وهذه قضية لا يحسمها غير التنسيق الصادق والدائم ومن مواقع الثقة، ولا سيما بين قوى التحالف الصدامية المتقدمة، وهي حالياً سوريا ومنظمة التحرير والحركة الوطنية اللبنانية. عبر هذا التنسيق يتم توزيع الأدوار والمهام لتصب كلها في الهدف الواحد.

ومن هنا، وفوراً، قبل استئثاره غير مقصودة لأية حساسية، تنتقل إلى البديهية الثانية وضرورة التعامل مع الواقع وفق معطياته، لتكرر على ضرورة استثمار ما هو قائم وتوسيع دائرة التحالفات وفق الاستعدادات المتفاوتة بين كل قطر عربي وآخر، وهذا يعني بالطبع تجاوز العامل الجيوبولوتيكي الذي يربط سوريا والثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ويجعل من تحالفها شرطاً أساسياً للنصر، إلى العامل القومي والأيديولوجي الذي يتسع ليشمل عدداً آخر من قوى التيار الثوري المؤطرة فيما عرف بجبهة الصمود والتصدي ويجمع بين كل من الجماهيرية الليبية والجزائر واليمن الديمقراطية مع ثالث الخندق الصدامي السوري - الفلسطيني اللبناني. وهناك أخيراً الإطار الأشمل، إطار الحد الأدنى، إطار القمة العربية.

يبقى، بعد هذا، بضع كلمات صريحة أيضاً، حول البديهية الثالثة ودور وأهمية الشخصية الوطنية الفلسطينية، والتي يعتبر البعض أنها تحمل بين ثناياها نوعاً من «الشوفينية».

واستأذن القارئ، هنا، بأن يسمح لي بأن أسارع بالاعتراف، وقبل غيري، بأن الساحة الفلسطينية، كأي ساحة عربية، لا تخلو من نشازات «شوفينية». ولست على أي استعداد للدفاع عنها أو تبرير انحرافها، وهي في نظري، شأن أي فئة مماثلة لها مهما كانت هويتها القطرية. وما من ساحة عربية تستطيع التبرؤ من وجود مثل هذه الفئة داخل حدودها. وإن كنت أجد بعض ما يفسر، ولا أقول يبرر، وجود التيارات الشوفينية في أية ساحة عربية. فإني لا أجد ما يفسر ذلك لدى الفلسطيني القابع إما في المنفى أو قيد الاحتلال. ربما يسوقنا الإلحاح، في محاولة التفسير لهذه الظاهرة، إلى قضية نفسية وليست سياسية. وتلك قضية أخرى ليس هنا مجال بحثها.

إنّ، نحن لانملك، موضوعياً، سوى ما بين أيدينا من مبادئ ومواقف ومواقف م. ت. ف.، وهي كلها، على ما أعلم، قومية العمق والمدى.

ولكن، وبكلمات صريحة أيضاً، علينا أن نقدر خصوصية قضية فلسطين وما أصابها، وعلينا أن نتذكر، وباستمرار، أن «الوجود» الفلسطيني شطب ما بين ١٩٤٨